



الترتيب التوقيفي للقرآن الكريم بين الاستعمال والإهمال
- مقارنة نقدية بين رؤية كل من محمد أبو القاسم حاج حمد وكفاح أبو هنود -
The Divinely Ordained Arrangement of the Holy Quran: A Critical Analysis of Utilization and Neglect
- A Comparative Study of Muhammad Abu al. Qasim Hajj Hamad's and Kefah Abuhannoud's Perspectives -

زينب عبد العزيز*

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر)

zineb.abdelaziz95@gmail.com

تاريخ النشر: 2025-07-15

تاريخ القبول: 2025-04-11

تاريخ الاستلام: 2024-11-07

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهمية الترتيب التوقيفي للقرآن الكريم، والذي يعدّه محمد أبو القاسم حاج حمد أحد أهم وجوه الإعجاز القرآني؛ فقد خلّص هذا الترتيب النص والخطاب القرآني من قيد الزمكان الذي يقتضيه -مثلا- السير وفق أسباب وترتيب النزول، إلا أن هذه النظرة قد لا تكون صحيحة تماما إذا ما استُخدمت أسباب النزول بما يمكن أن يفيد الناس في واقعهم المعاصر مثلما جاء عند كفاح أبو هنود فيكون ذلك الفهم أو التفسير مُعمّلا لخاصية القرآن الكامنة في صلاحيته لكل زمان ومكان. وكانت إشكالتنا التي انطلقنا منها هي: كيف يكون الترتيب التوقيفي للقرآن مظهرا من مظاهر الإعجاز؟ وكيف يمكن استخدام ترتيب النزول في وضع تفسير أو فهم مواكب للحياة العصرية؟ وقد توصلنا إلى نتيجة أساسية تتمثل في أنه يمكن الجمع بين استخدام الترتيب التوقيفي وعدم الإهمال الكلي لأسباب النزول في دراساتنا المعاصرة، وهذا الأمر يعتمد بشكل أساسي على الغرض المنشود من الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الوحدة العضوية للقرآن الكريم؛ ترتيب النزول؛ القرآن الكريم؛ محمد أبو

القاسم حاج حمد؛ كفاح أبو هنود.

Abstract:

This study highlights the significance of the Quran's divinely ordained Arrangement (tartib tawqifi), which Muhammad Abu al-Qasim Hajj Hamad considers a crucial element of

* المؤلف المراسل.

Quranic inimitability (i'jaz). This arrangement frees the Quranic text and discourse from the temporal and spatial limitations that might arise from adhering strictly to the chronological order and circumstances of revelation (asbab al-nuzul). However, Kefah Abuhannoud suggests that this perspective might overlook the potential benefits of considering the circumstances of revelation for contemporary relevance. Such an approach could highlight the Quran's inherent applicability across all times and places. This study addresses two primary research questions: How does the divinely ordained arrangement of the Quran manifest as an aspect of its inimitability? How can the chronological order of revelation be utilized to develop interpretations relevant to contemporary life? The study concludes that integrating the use of the divinely ordained arrangement with a consideration of the circumstances of revelation in contemporary Quranic studies is feasible, with the viability and nature of such integration depending primarily on the specific research objectives.

Keywords: Organic Unity of the Holy Quran; Chronological Order of Revelation; The Holy Holy Quran; Muhammad Abu al-Qasim Hajj Hamad; Kefah Abuhannoud.

1. مقدمة

من حكمة الله النافذة أن وهب لخاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد أحكمت آياته وفصلت من لدن حكيم خبير، وقد احتار العرب في هذا الكتاب، ولم يجد الجاحدون مخرجاً للانتقاص منه إلا أن وصفوه بالسحر، وقد تحداهم الله بأن يأتيوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله، لكنهم لم يستطيعوا، ليبدأ البحث عن سر الإعجاز في هذا الكتاب السماوي، فإن كان القدماء من المفسرين قد أولوا جانب البيان والبلاغة جانباً عظيماً من الأهمية، فإن المتأخرين من الباحثين والمفسرين قد أضافوا إلى ذلك وجوهاً كثيرة، وقد وصلت الأبحاث والدراسات من كتب ومقالات ومؤتمرات تحمل عنوان الإعجاز إلى 2800 عنواناً في عام 2015⁽¹⁾، لهذا أردنا التركيز على وجه واحد وهو قضية الترتيب الوقي للقرآن الكريم بعدّها مدخلاً أو وجهاً من وجوه الإعجاز، ولأن الباحثين تتشعب أطروحاتهم ومواقفهم منه، فقد أردنا التركيز على باحثين معاصرين؛ الأول هو المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد (1924. 2004)، والثانية هي الدكتورة الأردنية كفاح أبو هنود. فأبو القاسم المشهور بأطروحته المتمثلة في العالمية الإسلامية الثانية ومنهجية القرآن المعرفية التي لاقت الكثير من الجدل، ولكنها في الوقت نفسه من الأطروحات الجديدة بالتوقف والتأمل فيها، وقد أردنا التركيز هنا على رؤيته لترتيب نزول القرآن والترتيب الوقي الذي استقر عليه القرآن. أما الدكتورة كفاح فإن كانت مؤلفاتها قليلة لكنها على قدر من الأهمية بمكان لمحاولتها وضع لبنات لبناء الإنسان المعاصر من خلال ما زخر به القرآن المكي.

(1) عبد الله محمد الجيوسي، الجهود المبذولة في دراسة الإعجاز قديماً وحديثاً (دراسة إحصائية ونظرة تقويمية).

تاريخ الاطلاع: 2024/08/27، <https://www.alhiwartoday.net/node/9233>

وعليه؛ فقد كانت إشكالتنا في هذه الدراسة تتمثل في: كيف يكون الترتيب الوقفي للقرآن مظهرا من مظاهر الإعجاز؟ وكيف يمكن استخدام ترتيب النزول في وضع تفسير أو فهم مواكب للحياة العصرية؟ وقد سلطنا المنهج الوصفي باستخدام آليات: الاستقراء والتحليل والمقارنة من أجل تتبع أهمية الترتيب الوقفي وترتيب النزول، واستخراج الآليات المعتمدة في الفهم الناتج عن استخدامها عند كل من محمد وكفاح، وإجراء مقارنة نقدية بينهما.

أما عن أهدافنا فنجملها في الآتي:

- معرفة أهمية الترتيب الوقفي وترتيب النزول للقرآن الكريم.
 - بيان رؤية محمد أبو القاسم في كل من ترتيب النزول والترتيب التوقيفي.
 - توضيح كيف يعتبر محمد أبو القاسم الترتيب الوقفي من وجوه إعجاز القرآن.
 - توضيح رؤية كفاح إلى ترتيب النزول.
 - محاولة لوضع رؤية مقارنة بين كل من رؤية محمد أبو القاسم وكفاح.
- وعن الخطة؛ فقد قسمنا المادة العلمية إلى ثلاثة محاور: الأول: الترتيب التوقيفي في رؤية محمد أبو القاسم حاج حمد. والثاني: الترتيب وفق النزول في رؤية كفاح أبو هنود. والثالث: مقارنة نقدية بين طرح محمد أبو القاسم حاج حمد وكفاح أبو هنود.

2. الترتيب التوقيفي في رؤية محمد أبو القاسم حاج حمد

لا خلاف في أن "ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول"⁽¹⁾، ويذكر صاحب البرهان أهمية ذلك في قوله: "فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة وكان هذا الاتفاق من الصحابة سببا لبقاء القرآن في الأمة ورحمة من الله على عباده وتسهيلا وتحقيقا لوعده بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]"⁽²⁾. فاجتهاد الصحابة كان في جمع القرآن في مصحف واحد خوفا عليه من الضياع أو الزوال، وكان لهم علم مسبق بأن القرآن نزل مفرّقا، وأن ترتيبه كان توقيفيا من جبريل عليه السلام، أين كان يخبر النبي بموضع كل آية أو سورة، فلم تكن لهم أبدا الخيرة في ذلك.

وعن أهمية تنجيم القرآن ونزوله وفق الأحداث والمناسبات فتحدّث صبي الصالح عن ذلك فقال: "لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يظل الوحي متجاوبا مع الرسول ﷺ يعلمه كل يوم شيئا جديدا، ويرشده ويهديه، ويثبته ويزيده اطمئنانا، ومتجاوبا مع الصحابة يربهم ويصلح عاداتهم، ويجيب عن وقائعهم، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب، نزوله منجّما بحسب الحاجة: خمس آيات،

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 2، ص 210.

(2) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص 237.

وعشر آيات وأكثر وأقل⁽¹⁾. فالحكمة من نزول القرآن مفرقا هو الإرشاد والهداية للنبي الأكرم وقومه، وتثبيته وطمأنته، ومن بعد ذلك هداية وإرشاد قومه، والتجاوب معهم بإصلاح عاداتهم وتربية نفوسهم، والتدرج معهم في التشريعات والتعاليم.

فالترتيب التوقيفي أو الوقفي الذي نستعمله في هذه الدراسة هو من قبيل العرضة الأخيرة للقرآن الكريم المشار إليها في قول عبد الرحمن السلمي: "كَانَتْ قِرَاءَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَاحِدَةً كَانُوا يَقْرَأُونَ الْقِرَاءَةَ الْعَامَّةَ وَهِيَ الْقِرَاءَةُ الَّتِي قَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جِبْرِيلَ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ وَكَانَ زَيْدٌ قَدْ شَهِدَ الْعَرْضَةَ الْأَخِيرَةَ وَكَانَ يُقْرَأُ النَّاسَ بِهَا حَتَّى مَاتَ وَلِذَلِكَ اعْتَمَدَهُ الصِّدِّيقُ فِي جَمْعِهِ وَوَلَاهُ عُثْمَانُ كِتَابَةَ الْمُصْحَفِ"⁽²⁾. فمن أسرار تلك العرضة الأخيرة المكررة هو التثبّت من ترتيب القرآن كما أراد له المولى عزّ وجلّ أن يكون، مرتبا على غير ما أنزل.

وإذا ما أردنا الوقوف على رؤية وأهمية الترتيب التوقيفي عند محمد فيجب علينا التعرّف على النقاط الآتية:

1.2. القرآن والكون (الكتاب)

إن القارئ لفكر حاج حمد يدرك أنه يعطي لثلاثية الغيب والإنسان والطبيعة المحور الجوهري، لذلك؛ فإن رؤيته للترتيب التوقيفي تأتي أيضا من هذه الثلاثية. وعليه؛ لكي نفهم موقفه كاملا فسنعود إلى رؤيته للكون وعلاقة ذلك بالترتيب التوقيفي أو بالوحدة العضوية الكلية بعبارة أدق.

يقرّ محمد أبو القاسم بأن القرآن ظاهرة غيبية مفارقة تماما للكلام الإنساني ووعيه وتصوّره وواقعه، بل يستحيل على الإنسان أن يأتي بمثله، أي أنه يعترف بمصدرية القرآن الربانية، وهذا خلاف ما يتجه إليه بعض الحداثيين المستنسخين للمناهج الغربية، فهو يرى مثلا بأن الآيات القرآنية الكونية قد أفرغت الوعي العربي عن كثير من التصورات والأساطير التي كان يعتقد بها، مثل تقديس الظواهر الطبيعية، أو القول بأن لها نفسا مستقلة⁽³⁾: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37]، فهنا بين القرآن بأن الشمس والقمر ظاهرتان طبيعيتان لا غير، وأن التوجه بالعبادة يكون لله لوحده.

بالإضافة إلى أنه يرى بأن "القرآن معرفة معادلة للوجود الكوني وحركته؛ بمتابعة تفاصيل المخلوقات من جهة النشأة وتفريعات حياتها، ثم نهايتها أو مآلها. وفيه غالبا دعوات إلى التأمل في الكائنات، وأن يرفع الإنسان رأسه لتقاء السماء، ليعاين بوسائل التعقل لديه، إحكام الصنع ودقته، وأنه منظم بكيفية تشبه

(1) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 49.

(2) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 237.

(3) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 2، ص 130.

نظم الحروف والكلمات في أسطر وفقرات، وصفحات كأنها كتاب موحد الموضوع⁽¹⁾. بمعنى أن القرآن يحوي على نوع من المعرفة المتقدمة للكون ومختلف ظواهره، وهي معرفة ينبغي التوقف عند حكمتهما، والتي عدّها حاج حمد في أنها تقابل معرفة القرآن، لذلك نجده يستحضر قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: 80.75]، في التدليل على هذه المقابلة؛ فنفس حساسية البناء الكوني الدقيقة تنطبق على حساسية البناء القرآني المترتب من الحرف إلى الجملة إلى الفقرة وإلى السورة ثم القرآن كله⁽²⁾.

كما يركّز محمد على مقابلة مهمة أخرى بين القرآن والكون، وهي ظاهرة رتق وفتق السماوات والأرض، والتي وردت في قول المولى تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]، هذا الانفلاق الذي يستمر في ظواهر الحركة الكونية ومظاهرها: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَتَى تُوْفُكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 95.96]، ثم تنتهي إلى التركيب والتكوين مجسّدة خلقا كاملا من تنوع الظواهر الطبيعية والكائنات. ويشرح حاج حمد مثالا. كونيا متعلقا بالزمان. على ذلك بقوله: "فبالانفلاق حيث يتحدد الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وبمقابلة ثنائية، جعلت صلاة الفجر ثنائية، ثم حين تدلك الشمس إلى الشفق ثم الغسق، جعل الشفق دلالة على التركيب، تركيب ما كان قد انفلق، والتركيب توليد الناتج من ثنائية الانفلاق، فالناتج هو البعد الثالث في التركيب، كظواهر الشفق تماما، ثلاثي الألوان، خيط أبيض وأسود وأحمر، فتكون صلاة المغرب بكتابتها الموقوت في الشفق ثلاثية"⁽³⁾. وتكتمل دلالات الخلق بعد الانفلاق والتركيب "فلا يكون بعد ذلك سوى (الاستواء) والرحمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]. والاستواء بالرحمة على العرش، والعرش رباعي وهكذا تكون صلاة الغسق والعشاء رباعية، وتلحق بها صلاة الظهرين أو العصرين: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]. هكذا أنزل الله القرآن على خاتم النبيين الموقر تبياننا لكل شيء: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]. فأمرنا بهذه الصلوات كتابا موقوتا"⁽⁴⁾. فإذا كان الشرح الذي عرضه حاج حمد هو اجتهاد خاص به، إلا أنه حاول الموازنة بين الفتق والرتق والبعد الزماني المتمثل في أوقات الصلوات المفروضة، ونلاحظ أن المصطلح

(1) الحاج أوحمنه دواق، الإيستمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدى قراءة في مشروع محمد "أبو القاسم" حاج حمد، ص 275-276.

(2) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 1، ص 59.

(3) محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، ص 87.

(4) المصدر نفسه، ص 88.

الذي تكرر في الآيات السابقة هو (الكتاب)؛ فالكتاب يشير إلى البعد الزمني (الذي تطرقنا إليه)، بالإضافة إلى البعد المكاني: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]، ولهذا قال: "أودع الله في المجال الكوني ما يكشف القرآن المقابل لها عن كافة وجوهه المنهجية والمعرفية بداية بمواقيت الصلاة التي ذكرتها (كتابا موقوتا) فيما يعنيه الكتاب بمفهوم الزمن المرتبط بحركة الشمس والظواهر كما في آية الصلاة الموقوتة، وكذلك يعني (المكان) كما في آية الأنعام رقم 38... فإنه كوني يتضمن متغيرات المكان وامتداد الزمان، فهو معادل للوجود الكوني وحركته"⁽¹⁾. وكان حاج حمد هنا يلمح إلى تشابه في الأسلوب المنهجي الذي يمكن أن نتعاطاه في تعاملنا مع الكون والقرآن، وتيسر القول بأن "ما فعله الله سبحانه، سواء على مستوى بنائية الكون الطبيعي بداية من الانفلاق وانتهاء إلى التركيب المنهجي، وعلى مستوى بنائية القرآن بداية من فتحه أو رتقه أو انفلاقه أو فرقانه ليتنزل على واقع الناس ثم يمضي به إلى التركيب المنهجي فيستوي به كتابا منهجية معرفيا كبشري مستقبلية لكافة الناس في كل العصور من بعد أن فرقه ليثبت به قلوب المؤمنين: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الاسراء: 106]"⁽²⁾. أي أن ما حدث مع القرآن من تنجيم وتنزل على حسب المناسبات والأحداث، ثم أعيد تركيبه بطريقة مخالفة لترتيب النزول، له مثيل ونظير متمثل في الكون من فتح ورتق ثم تركيب. ولأن العلم تطوّر واكتشف ما حدث مع الكون، وأصبح لديه نظرية في المعرفة تقوم على معالجة الظواهر في إطار وحدتها لا انفصالها، فينبغي أيضا أن ينظر إلى القرآن في كليته (ترتيبه التوقيفي) بدل النظر إليه في تفرقه (ترتيب نزوله)، لأنّ القرآن متجمّع كيفيا في بناء واحد، وليس كميا⁽³⁾.

2.2. أسباب النزول والنبوة:

إذا كان محمد أبو القاسم قد طالب بالنظر إلى القرآن من خلال الترتيب الكيفي والتوقيفي الذي استقر عليه؛ فإنه يعدّ البحث عن أي معنى قرآني وفق سبب النزول تقييدا لدلالات الآيات بالواقع التاريخي، وهذا ما يفقد القرآن إطلاقيته الزمانية والمكانية، ويجعله لصيق حصرية مرحلة التنزيل⁽⁴⁾. ولكي نفهم تحديدا دور أسباب النزول عند حاج حمد علينا أن نفهم دور النبوة في زمن التنزيل. لكل مرحلة تاريخية وعمها وتفكيرها، ففي العصور الأولى لنزول القرآن الكريم كان العربي ضمن مرحلة عقلية لم تتح له التعامل بمنهجية علمية محدّدة مثل التي أتاحت لمفكري ودارسي اليوم، ولهذا كان دور النبي في تلك المرحلة التوسط الحي والفعال بين تعاليم الوحي وحقائق القرآن وقومه "فعرّف الله الرسول

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، ص 93.

(2) المصدر نفسه، ص 94.

(3) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 2، ص 506.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 34.

بأنه (الأسوة الحسنة) أي القدوة العملية التي يحتذى بها العرب "عملياً" في حالة "الغياب النظري" لوعي المنهج... كان الرسول وسيط التحول من "المنهج" إلى "التفاصيل" الشاملة لكل شيء، ضمن مجتمع قادر على النفاذ إلى الوعي القرآني بمعناه المنهجي. لم يكن من مهمة الرسول "تغيير الحالة العقلية"، وإنما فقط ترشيد المجتمع وضبطه ضمن تطبيقات المنهج... كان الوعي المحمدي وعياً متفوقاً بالإضافة إلى إمكانيات النبوة الغيبية والعلم اللدني الإلهي..."⁽¹⁾

ولأن النبي الكريم كان وسيط هذا المنهج، فيمكن عدّ أسباب النزول والمناسبات من الروايات التي ساعدت العربي الأول إلى الوصول لوعي معين في التعامل مع القرآن، وهذا الوعي مطالب اليوم بأن يكون أكثر منهجة من سابقه، مع التنويه بأن "هذا الأسلوب المنهجي الكلي الذي أفصح عنه القرآن في حد ذاته، لا يُنقص من فهم العربي الأول الذي تناول القرآن على أساس الجزء، ولم ينتبه إلى حكمة الترتيب الوقفي، لأن العقل العربي حينها كان يتعامل مع مختلف الظواهر عن طريق الجزء والاستقلالية"⁽²⁾ فلا نحجر على العقول التعامل مع القرآن بأي طريقة أو أسلوب تكشف لها.

3.2. الترتيب الوقفي والوحدة العضوية

إن النص الذي اقتضى إعادة ترتيب القرآن على غير نزوله عند محمد أبو القاسم حاج حمد هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 101، 102]، ففي الآيتين إشارتان؛ إحداهما هي التثبيت والأخرى هي البشرى. التثبيت متعلق بنزول الآيات وفق المناسبات والوقائع، وأما البشرى فهي مرتبطة بالوحدة العضوية التي استقر عليها القرآن، أي على خلاف ترتيب النزول. وبناء عليه يكون التثبيت مقيداً بالظروف الزمانية والمكانية لنزول القرآن، وأما البشرى فهي استشراف مستقبلي مطلق متحرر من هذه القيود⁽³⁾. ولأن مهمة القرآن في عصر التنزيل كانت مهمة تحويلية أي تغيير وعي العربي من الشرك إلى الإيمان، وتزويده وتدريبه على بعض آيات فهم القرآن، وُجد الاستئناس بالمناسبات وأسباب النزول والمزج بين الإرشاد الإخباري والتجربة العملية، ولأن القرآن في الوقت نفسه لم يكن حصراً للعرب الذين نزل عليهم القرآن، بل تخطاهم للعالم أجمع، فقد أعيد ترتيب القرآن، وأخرج من بُعد المحلي إلى بُعد العالمي، وهذا من أهم حكم إعادة الترتيب⁽⁴⁾.

ومن هنا؛ فمحمد أبو القاسم حاج حمد يقرّ بأن القرآن صالح لكل زمان ومكان وهذا من معجزة القرآن الخالدة، لكن التحدي عنده هو في إثبات هذه المسألة موضوعياً، أي كيف يكون القرآن صالحاً

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، ص 133.

(2) زينب عبد العزيز، الآليات المنهجية للقراءة الحدائثية للنص الديني محمد "أبو القاسم" حاج حمد نموذجاً، ص 5.

(3) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 2، ص 110.

(4) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 2، ص 171.

لكل زمان ومكان، دون تعطيل لأي جزئية منه؟ هل بأسباب النزول التي تعدّ آية من خارج القرآن، أم من خلال النظر إلى بنائه الكامل الذي استقر عليه وهي آية داخلية؟ لهذا نراه يطرح رؤيته لهذه المسألة في كون القرآن قابلاً "بحكم منهجيته الإلهية للتعامل مع صيرورة المتغيرات الاجتماعية والتاريخية طبقاً لوحده البنائية العضوية، من بعد إعادة الترتيب الوقفي لآياته بما يتجاوز مرحلة التعيين التاريخي المقيدة إلى أسباب النزول وظرفية المكان، وهذا من مكنون مستقبلته. ثم إنه قابل للتفاعل مع كل مناهج المعرفة والحقول الثقافية البشرية المختلفة، والتي بمقدوره وحده إعادة صياغتها باتجاه "منظور كوني" يحزّر الإنسان من أشكال الفكر المادي والوضعي"⁽¹⁾. فالترتيب الجديد أخرج القرآن من التقييد إلى الإطلاق؛ صحيح أنه أنزل في فترة معينة وأعطى تلك الفترة وحياً كاملاً مستجيباً لما كان فيها، لكنه لم يتوقف عندها، بل إن من خصائصه المعجزة هو سيره باتجاه المستقبل عبر مختلف العصور، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 31. 32]. ففي هذا النص تأكيد على علاقة القرآن بالماضي وتأكيد ثاني على استمرارية القرآن عبر المتغيرات التاريخية؛ فالتوريث والاصطفاء الذي يكون بعد انقطاع النبوة يفرض وجود رؤية جديدة للمحتوى القرآني في علاقته مع الواقع بعيداً ربما عن المفاهيم السابقة المستخرجة، فحتى صفة الوارثين متنوعة؛ فمنهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات، وكل هؤلاء يعطيهم الله من وحي كتابه، بل إنهم وفق حاج حمد. ورثة كتاب الله والمصطفين من قبله، وهذه الورثة ليست حصرية لأولياء الله، بل حتى الظالم لنفسه له وراثة للكتاب حيث تتكشف المعاني الكامنة في الكتاب في عقله وقلبه⁽²⁾.

وتأكيداً على ما قيل "فلو افترض التحليل -جدلاً. أن القرآن ترك على ما أنزل، لانتفت قيمته إبستمولوجياً، ولما تمكن الوعي من الاستمداد المعرفي والمنهجي منه؛ لتشتت مضامينه، وتشظي محتوياته على تنزلات اقتضتها بعض الظروف، وصدق ظن التاريخانيين فيه. أما وقد أعيد ترتيبه وإرجاعه إلى حالته العلوية المطلقة الموازية للوجود المطلق، فقد تنوول منهجياً، واستطاع أن يتحول إلى معين ثقافي غير متوقف"⁽³⁾. ف"تكريس الوحدة المنهجية للكتاب"⁽⁴⁾ تعطيه قراءة منهجية جديدة تعالج الموضوعات ضمن وحدة منهجية كلية ناظمة. إن تطبيق هذا الأسلوب العلمي الكلي الذي ينظر في فهم المفردات

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، ص 141.

(2) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 2، ص 109، 503.

(3) الحاج أوحمنه دواق، الإبستمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي قراءة في مشروع محمد "أبو القاسم" حاج حمد، ص 283.

(4) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، ج 2، ص 507.

والمصطلحات والمعاني القرآنية ضمن الوحدة الكلية للكتاب أولاً ثم الاستفادة مما يوجد خارج هذا الكتاب ثانياً يمكن من طرح قراءات جديدة موافقة لمتطلبات الواقع ومفعلة لإطلاقية القرآن ومكونيته.

ومن الأمثلة التطبيقية التي استعان بها حاج حمد في التدليل على أهمية الوحدة العضوية للقرآن وضرورة قراءة النص من خلال الكل القرآني الذي لا يفصل بين المكي والمدني هو قراءته لما ورد في سورة يوسف حول مساكنة المتبنى وربطه بما ورد في سورة الأحزاب وسورة النساء حول تعدد الزوجات. فقد أدى تبني يوسف ومساكنته مع امرأة العزيز أن تحركت نفسها إليه بالرغم من اعتباره ابناً لهم في المقام الأول، حيث قال تعالى: ﴿وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 23. 24]. فالإشارة إلى المساكنة كانت في قوله: (ورأوته التي هو في بيتها)، فالمتبنى ليس له نفس التكوين العائلي الجسدي والنفسي للأسرة التي هو ضمنها، ولهذا جاء الأمر إلى النبي الكريم بإبطال التبني: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 37. 40]. وحين نذهب إلى سورة النساء وتحديداً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 1. 3]، فإننا نجد خطاب التعدد موجه لفئة محددة، وهم النساء وليس الفتيات، أي المقصود هن النسوة اللاتي توفى عنهن زوجهن أو العانسات، وإن كان حاج حمد لم يول العانسات بحديثه وتوجه رأساً إلى تفصيل الحديث عن الأرمال، فيقول: "هذه الثانية (مثنى) قيد الزواج منها بشرط عائلي هو العناية باليتامى من ذوي الصلة بالرحم... أوضح الله أن هذه الكفالة لا يمكن أن تتم دون زواج أهمهم. وهي كفالة أمرنا الله فيها (بالقسط) والذي هو أكبر من مجرد العدل والإشراف الهامشي من على البعد. فحين نقوم بالقسط تجاه اليتامى يكون التردد الدائم عليهم وتبعاً لذلك على أهمهم المحرومة من الزوج والتواصل النفسي فيكون (المحذور) الناتج عن (المساكنة) خصوصاً وأن الكافل يبذل

المحبة والعطاء لمن هم أقرب الناس إلى أمهم، والمحرومة من زوجها، فتظهر دواعي التجاذب النفسي بين الذكر والأنثى، أي بين الأم والكافل"⁽¹⁾.

فهكذا يتم الأمر حينما تحلل الآيات في سياق الوحدة العضوية الكلية، فسورة النساء أعطتنا إشارة إلى كيفية كفالة الأيتام التي تحرم المساكنة، وأعطانا حالة ليوسف عليه السلام، ثم جعل لنا تشريع تحريم التبني من خلال منع النبي العظيم من تبني زيد، "فالتبني منهي عنه، والمساكنة منهي عنها، وقد كشف الله عن (دواخل) الأنبياء المعصومين ليوضح لنا خطورة التبني والمساكنة، فليس غير الله من يعلم بدواخلهم"⁽²⁾.

إذا نجمل التحليل كي لا ينسي بعضه بعضا، ونقول إن من إعجاز القرآن هو ترتيبه على غير ما أنزل إطلاقا له من التقييد والتعيين، وسماحا له بالتفاعل مع المتغيرات الاجتماعية والتاريخية، وإحقاقا لصلاحيته في كل مكان وزمان، وكشفا عن أسلوب منهجي جديد في التعامل معه.

3. الترتيب وفق النزول في رؤية كفاح أبو هنود

الدكتورة كفاح هي داعية ومساهمة في "صناعة الإنسان وفق منهج قرآني لا تشوبه شائبة هوى أو خلل"⁽³⁾، فلذلك ألفت مجموعة من الكتب القيّمة ونشطت في مجال التطوع من أجل هدفها الأسمى.

فإذا توقفنا بداية عند مصطلح التفسير عندها وعلى من يجب إطلاق لفظ المفسر نجدتها تفرّق بين المفسر والناقل للتفسير؛ فالأول مجتهد مثله مثل الفقيه؛ فهو يجتهد في فهم معاني النصوص واستنباط المراد، وأما الثاني فهو ناقل دون زيادة اجتهادية منه، إلا ما كان شرحا وتوضيحا لتلك النقول. فعلى الرغم من هذا الاختلاف بينهما، إلا أنهما يشتركان في إلزامية وجود أدوات وشروط فهمهما حتى ينجزان ما عليهما على خير وجه⁽⁴⁾. وهذا أمر مفروغ منه مجموع عليه من طرف المشتغلين بحقل الدراسات القرآنية، من بينهم على سبيل المثال لا الحصر عائشة عبد الرحمن التي ترى بأنه من "غير المتصور أن يتصدى لتفسير أي نص، من لا دراية له بأسرار لغته وفقه سياقه ودلالاته"⁽⁵⁾.

وأشارت كفاح إلى القواعد والشروط التي يجب أن تتوفر في المفسر فذكرت كلا من: حفظ القرآن أو أكثره أو تلاوته بشكل دائم، والعلم بالأحاديث النبوية والعلوم المرتبطة بها، والتبحر في اللغة العربية وأساليبها، والتبحر في علوم القرآن، والعلم بأصول الدين والعقيدة، وبالفقه وأصوله، وبالتاريخ والسيرة النبوية، والعلم بأحوال البشر والسنن الإلهية في الكون، وعلم الموهبة، والتخلي عن المقررات السابقة قبل

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، المداخل المنهجية والمعرفية للنص القرآني والتجديد مع دراسة تطبيقية حول المرأة المسلمة ودونيات مفهوم الخلق الأسطوري الإسرائيلي والعرب الاجتماعي العربي، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ص 56.

(3) مشكاة: <https://mishkahorg.com/ar/node/271> تاريخ الاطلاع: 2024/08/17

(4) كفاح أبو هنود، التوظيف الحدائي لآيات المرأة وإشكالياته "جمال البنا" نموذجاً، ص 358.

(5) عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري (هذا بلاغ للناس)، ص 48.

الدخول إلى عالم القرآن والتجرد عن الهوى، والاتصاف بصفات أهل الخير والصلاح، والامتثال والعمل، والمعرفة بالواقع، واتباع المنهجية الصحيحة في التفسير بدءا بتفسير القرآن بالقرآن، فتفسير القرآن بالسنة، فبأقوال الصحابة ثم التابعين، وبعد ذلك اللغة⁽¹⁾. وهذا ما يتفق عليه أصحاب قواعد التفسير، مثل عماد علي عبد السميع⁽²⁾، ومن قبله خالد عبد الرحمن العك⁽³⁾ والإمام السيوطي في فصله عن معرفة شروط المفسر وأدابه⁽⁴⁾.

ولنتمعن في حديثها عن علوم القرآن تحديدا، لأن هذا هو مربط الفرس في دراستنا، فتقول فيما: "التبحر فيما اصطلح على تسميته بعلوم القرآن من العلوم المتصلة بالقرآن؛ كأسباب النزول، وعلم القراءات لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض... فسبب النزول مثلا يعين على فهم معنى الآية المنزلة فيه لأن العلم بالسبب كما يقول ابن تيمية "يورث العلم بالمسبب"، ولأنه كما قال ابن دقيق العبد: "طريق قوي في فهم معاني القرآن"، وعدم الاطلاع على هذه الأسباب يوقع المفسر في مواقع الزلل التي لا تزول بحال من الأحوال إلا بالوقوف عليها"⁽⁵⁾. فأسباب النزول عندها من القواعد الكلية التي يجب على المفسر الإلمام بها وتوظيفها في تفسيره، وهذا الذي يتضح من خلال نقدها لاجتهادات جمال البنا في تفسير آيات المرأة، فقالت: "يصرّ جمال البنا على رفض الكثير من أدوات التفسير الصحيحة، ويتخذ موقفا متشددا منها كموقفه من اللغة العربية، ورفضه لأسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ وغيره، وهذا من الجهل بأحكام النص الكلية"⁽⁶⁾. فنظرة كفاح إلى علوم القرآن نظرة إلزامية لمن أراد الاشتغال بالتفسير، ولا عذر في عدم الرجوع إليها واستخدامها، بل ذلك من النقص والخطأ الذي يعترى المعاني المستخرجة من القرآن.

طبعا إن نظرة جمال البنا في أسباب النزول تختلف كثيرا عن رؤية محمد أبو القاسم؛ فالثاني قد حللنا رؤيته فيما تقدم، أما جمال البنا فإنه يعدّ التفسير أخذا بأسباب النزول يجعل من القرآن "كتاب رواية مقيّدة خاصة"⁽⁷⁾، وكذلك بحسب كفاح_ فإنه يشكك في صحتها؛ فيعد معظم ما جاء فيها منحولا أو موضوعا أو منقولا بالمعنى أو هو من قبيل الإسرائيليات، فضلا على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ لذلك فهو لا يرى أهمية في استخدامها لأنها قد تعطي فهما غير سوي؛ فنقد كفاح له

(1) كفاح أبو هنود، التوظيف الحدائي لآيات المرأة وإشكالياته "جمال البنا" نموذجاً، ص 359-370.

(2) عماد علي عبد السميع، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، ص 27-32.

(3) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، ص 186-189.

(4) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 4، ص 200 وما بعدها.

(5) كفاح أبو هنود، التوظيف الحدائي لآيات المرأة وإشكالياته "جمال البنا" نموذجاً، ص 363.

(6) المصدر نفسه، ص 377-378.

(7) جمال البنا، تثوير القرآن، ص 56.

في هذه النقطة جاء من منطلق إيراده لمثالين فقط يستدل بهما على رأيه في إسقاط وإهمال الأخذ بأسباب النزول، ثم عمم هذا الحكم⁽¹⁾. فالبون شاسع إذا بين رؤية محمد أبو القاسم وبين نظرة جمال البنا في أسباب النزول؛ فالأول يعدّها أسلوباً خاصاً بفهم العرب الأوائل، وتلك كانت طريقتهم التي فهموا وتعاملوا وفقها مع القرآن في إطار وعيهم العقلي وحالتهم التاريخية ومهمتهم التحويلية، وحن الوقت من العربي المعاصر أن يتجاوز ذلك التزاماً بالترتيب الوقفي الجديد للقرآن في بعده العضوي الكلي، أما جمال البنا فإنه يسقط أسباب النزول تماماً باستخدام عينة قليلة وتعميم كلي.

وعودة إلى كفاح ومحاولة معرفة رأيها في الترتيب الوقفي فإننا نجد إشارة لذلك أيضاً في نقدها الموجه لجمال البنا؛ فطريقة البنا في تفسير الآيات هو اعتماد الفهم الموضوعي، بحيث يجمع موضوعات القرآن الرئيسية في: الله تعالى، الرسول ﷺ وبقية الرسل، قضايا الإنسان والمجتمع الإنساني، الكون، والعقل والقيم⁽²⁾. لكنها لا تعد التفسير الموضوعي السبيل الوحيد في فهم معاني القرآن، فتقول: "فجمع آيات موضوع ما تحقق رؤية جيدة لكيفية تناول القرآن لذلك الموضوع؛ لكن عرض الآيات في مواقعها ونظمها الجليل وما يتعلق بها من أحكام وقضايا لغوية وفكرية والرجوع إلى المصادر الأخرى غير القرآن في التفسير هو الذي يحقق الفهم السديد للنص القرآني، ويبلغ بالمتلقي من خلال وقوفه على طريقة العرض وأسلوب تناول القضايا القرآنية أهدافاً عديدة أرادها المولى عز وجل من إنزال القرآن الكريم على النحو الذي بين أيدينا في المصاحف، لذا فإن الاقتصار على طريقة التفسير الموضوعي في فهم القرآن يعد استلاباً للآية من سياقها وعالمها وبنائها الخاص، فالصواب فهم الآية من خلال سورتها الكريمة ومن خلال العرض العام لموضوعاتها في الكتاب الكريم"⁽³⁾. فمعنى الفهم الموضوعي عند البنا غريب نوعاً ما بالنسبة لكفاح، لأنه أجمل موضوعات القرآن الرئيسية ويحتكم إليها، وذلك غير كاف في التوصل إلى فهم سديد شامل للمعنى القرآني. كما أنها أشارت إلى أهمية الترتيب الوقفي الذي تموضع عليه القرآن، وسنرى في قادم التحليل، كيف جمعت كفاح بين ترتيب النزول والترتيب الوقفي للقرآن الكريم.

في كتابها "فقه بناء الإنسان في القرآن" حاولت أبو هنود أن تكتشف "كيف صنع القرآن إنسان الرسالة؟ كيف بنى قامات شيدت حضارة إسلامية ماهرة؟ وكيف كانت الكلمات تعيد تشكيل العقل والنفوس والسلوك؟"⁽⁴⁾، وذلك عبر "قراءة النص القرآني الكريم قراءة تستلهم قيمه وتصوراته ومعانيه ومقاصده في تشكيل إنسان الرسالة وإنسان الحضارة وإنسان الوظيفة العليا، ووظيفة العمارة للأرض والخلافة فيها. محاولة تقوم على تدبر خطاب القرآن في سورة المكية الأولى وغاياته من معان محددة زخرت

(1) كفاح أبو هنود، التوظيف الحدائي لآيات المرأة وإشكالياته "جمال البنا" نموذجاً، ص 233-240.

(2) المصدر نفسه، ص 258.

(3) المصدر نفسه، ص 261.

(4) كفاح أبو هنود، فقه بناء الإنسان في القرآن، ص 19.

بها سور القرآن المكي واختصت بها غالباً، فجاء من مجموعها نظرية شاملة في فقه بناء الإنسان في القرآن⁽¹⁾. فلأن هدفها هو معرفة كيف أعاد الله تشكيل إنسان الرسالة، وكيف سدد خطواته ليتحول من طريق الضلال إلى طريق الحق، ثم يصير إنسان الحضارة التي رفعت كرامة المرء وأعلت من قيمة عقله وأخلاقه وقيمه ودينه، كان اعتمادها على القرآن المكي وترتيب النزول، أي أن أنسب طريق اختارته للوصول إلى هدفها هو استخدام ترتيب النزول، لهذا نجد أنها ابتدأت من حيث ابتداء القرآن بـ"اقرأ" وختمت بـ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، متبوعة لأكثر من 53 موضعاً من مواضع النزول، لكنها في الوقت نفسه استخدمت التناسب بين السور في تدليل على أهمية الترتيب التوقيفي الذي استقر عليه، ونلاحظ هذا مثلاً في تنويعها إلى الحكمة من ورود سورة القدر بعد سورة العلق، فتقول: "كان الفتح قادماً من الإنسان وليس من مكة، من عمق الإنسان الذي جمع الوحي وعيا، ثم صار به أسراباً للهدى، كان قادماً من المعاني التي ولدت وقالت للجاهلية: كفى للإنسان هدراً؛ فصار المسلم بعدها أبجدية المدارج لمقامات الراسخين في العلو، والعلم، والسلام. لذا؛ جاءت سورة (القدر) بعد سورة (اقرأ)؛ فصاغنا مشهد الرفعة من سطر الكتاب. لقد كان القارئ الأول يتلقف المعنى بكراً؛ فيوقظ فيه الفهم عميقاً، ينتبه أن للقدر درياً يبدأ من: (اقرأ)، الكلمة التي بنت في كل بيت مسلم مكتبة حتى صار التباهي بين الناس بقدر ما لديها من كتب نادرة وثمانية"⁽²⁾. فالمناسبة بين سورة القدر والسورة التي قبلها (العلق) تتمثل في تكريم الإنسان بفعل القراءة ليكون له قدر عالٍ بين شعوب الأمم.

نلاحظ استعمالها أيضاً للوحدة العضوية للسورة الواحدة؛ ففي نهاية قراءة سورة الواقعة تقول: "سورة (القارعة) سورة مكية تنزل في زمن التشكيل الأول، تبعث السورة مشاعر الإحساس بالآخرة حتى لا تضل الخطوات عن غاياتها. سورة تنبئك بأن الموازين ثقيلة أو خفيفة ولا بين بين ذلك، سورة تحمل المسلم إلى الآخرة وتسمعه صوت الهاوية، صوت فراغ السعي، وتقول له الطريق إلى عيشة راضية يبدأ من هنا"⁽³⁾.

فبالإضافة إلى استخدامها لجملة من علوم القرآن، إلا أنها استلهمت من الواقع، أو أسقطت ظلال القرآن على الواقع، ففي قراءتها لسورة التكاثر قالت: "كان القرآن يخبرنا أن بين ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1] ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 2] المسافة معدومة، والزمان صفر في قياس الله. ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ هو توصيف لوضع عقلي يسيطر على الأمة؛ فتسقط في شرك الأشياء، وتختفي من صدور الرجال أصوات الأفكار، وذلك حين تكبر الزينة فينا؛ مثل خراب لا يشبع إلا من سقوطنا"⁽⁴⁾، فاستخرجت

(1) المصدر السابق، ص 10.

(2) المصدر نفسه، ص 245.

(3) المصدر نفسه، ص 277.

(4) كفاح أبو هنود، فقه بناء الإنسان في القرآن، ص 173.

المعاني الرابطة المباشرة بين التكاثر والاستهلاك والموت، ثم انتقلت لبيان واقع المسلمين اليوم، فتقول: "ألا تلمح كيف ينمو الاستهلاك في فراغ عقولنا؟ (التكاثر) فكرة فاسدة، تسجن الأمة فيها حتى تنتهي بلا وزن، وتنتهي مبكرا إلى الكفن؛ ففي عالم الاستهلاك، كل شيء له تاريخ صلاحية؛ حتى العلاقات الإنسانية تصبح خاضعة للمنطق الاستهلاكي"⁽¹⁾، ثم تكمل "هل تراك تنهت لرسالة السور المكية؟ إنها تبدأ بك من حيث لا تنتبه، إنها تشكلك حتى لا تكون ذات يوم مجرد بقايا. إن الفرد الذي لا يمتلكه نفسية (التكاثر) لا يمكن أن يتلاشى؛ إنه مثل لبنة وثيقة في جدار الأمة"⁽²⁾. فنرى كيف استخرجت من أوائل ما نزل من الوحي منهجا للإنسان في كل وقت وعصر. فكأنما حاولت كفاح في كتابها هذا أن تأخذ بيد الإنسان المعاصر وتريه الدرب الذي سار عليه العربي الأول، والذي من خلاله تمكّن من حمل الرسالة وريادة العالم، عسى أن يعود إليها عربي اليوم ليأخذ منها فيطبّقها ويفعلّها في واقعه، فالمسلم اليوم يعيش بعيدا عن التلاوة الحقيقية للكتاب، فقالت "القرآن في عالمنا ما زال في طور "الترتيل"، ولم نعل به إلى دور (التشكيل)، نحن نتقن في القرآن الأداء الصوتي ونعجز كأمة عن الأداء السلوكي. وما زال القرآن يتردد في (الحناجر)، ولم نبلغ به أن يغيّر (المصائر)"⁽³⁾.

وكانت هذه دعوة كفاح أبو هنود حيث استخدمت مزيجا متوازنا بين ترتيب النزول والقرآن المكي، بالإضافة إلى علم المناسبات الذي يعبر عن الوحدة العضوية للقرآن في سبيل الخروج بأفضل النتائج لدراستها المعاصرة.

4. مقارنة نقدية بين طرح محمد أبو القاسم حاج حمد وكفاح أبو هنود

بعد التحليل في جزئية استعمال أو إهمال الترتيب التوقيفي عند كل من محمد أبو القاسم وكفاح يمكن أن نخرج بالنقاط الآتية:

بيّن كل من محمد أبو القاسم وكفاح أهمية ودور ترتيب النزول والترتيب الوقفي؛ وإن اختلفت رؤية كل منهما، فترتيب النزول عند حاج حمد خاص بمرحلة التنزيل ومرحلة التدوين، لأن ذلك ما كان يسمح به وعي العربي من تعامل مع القرآن، حيث كان التنزيل المنجم وفق المناسبات من قبيل تثبيت القلوب لهذا الدين الجديد، أما اليوم فلم يعد المسلم المعاصر في حاجة إليه، لأن القرآن أفصح من منهج عضوي كلي داخلي، مترفع على القيودية التي تفرضها كل من أسباب النزول وترتيب النزول نحو الإطلاعية والشمولية المرافقة للمتغيرات التاريخية والاجتماعية. أما عند كفاح فإن أسباب النزول وترتيب النزول إنما تعد من علوم القرآن ومن الأدوات التي يجب على المفسر أن يلم بها ويأخذ بها.

(1) المصدر السابق، ص 174.

(2) المصدر نفسه، ص 175-176.

(3) المصدر نفسه، ص 13.

استخدام الترتيب التوقيفي عند حاج حمد قد يسوده بعض اللبس نتيجة أنه لم يوضّح (على الطريقة التراثية) أين كان الوقف هل في سور القرآن (الذي عليه الإجماع)، أم في ترتيب الآيات داخل السور أيضا (والذي فيه خلاف)، وإن كان يترجّح القولان معا، لأنه يشبه تموضع الآيات في مكانها بتموضع النجوم في مواقعها، فالقرآن الذي بين أيدينا اليوم هو نفس القرآن الذي كان على العرضة الأخيرة.

دعا كل من حاج حمد وكفاح إلى استخدام الترتيب الوقفي، لكن أهمية ذلك وكيفيته تختلف بينهما أيضا؛ فحاج حمد يعدّ الترتيب الوقفي دالا على الوحدة العضوية المشابهة لعضوية الكون في ظواهره ومظاهرها، ويجب في محاولة فهم المعاني الرجوع إلى النسق الكلي القرآني، أما كفاح فإنها تعد الترتيب الوقفي يسمح بتكامل المعاني المستخرجة من القرآن من قبيل التناسب بين السور.

إن الاختلاف بين حاج حمد وكفاح بيّن، وهذا في الأخذ بأسباب النزول وبقية علوم القرآن مثل الناسخ والمنسوخ وعلم القراءات بالنسبة لكفاح، ورفضها رفضا قاطعا من طرف حاج حمد، فمن وجهة نظر كفاح هي تعتبرها من أدوات التفسير الصحيحة، وهو يعدها عدم فهم لمنهجية القرآن الكلية وخرما في المنهج الصحيح المطلوب منا اليوم.

اتفق كل محمد أبو القاسم وكفاح في محاولة تفعيل القرآن في الواقع، وإن اختلف أسلوبهما، فالأول استفاد من المنهج الداخلي الذي استخرجه من القرآن، والثانية استفادت من العلوم المرتبطة بالقرآن من بداية تنزيله.

يظهر وكأن اجتهاد كفاح (التطبيقي) هو خاص بالمرحلة الأولى (التثبیت) التي تطرق لها حاج حمد في حديثه عن أهمية ترتيب النزول وحكمة نزول القرآن منجما ودور وساطة النبوة بين الرسالة وتبليغها إلى العرب، ويظهر اجتهاد حاج حمد (النظري) تجاوزا لتلك المرحلة إلى مرحلة البشري المستقبلية للقرآن. مع الإشارة إلى أن كفاح حاولت أن تخرج من قيد المرحلة الأولى بأن تفعل لبنات بناء الإنسان في الواقع المعاصر، وهذا هو (البشري) أو (الإرشاد) الذي يحمله القرآن الكريم بشكل كلي بغض النظر عن كونه مكيًا أم مدنيًا.

عدّ حاج حمد مخرجات تفعيل الترتيب الوقفي القرآن من مكنونية وإطلاقية ومستقبلية وكلية وعالمية ومنهجية من مظاهر ووجوه إعجاز القرآن، بينما عدّت كفاح ترتيب وأسباب النزول والقرآن المكي أدوات كاشفة عن فقه تشكيل الإنسان الرسالي.

في الجمع بين رؤية كل من الباحثين يمكن أن نخرج بمقاربة بينهما تتمثل في استخدام ما دعا إليه حاج حمد من تفعيل للترتيب الوقفي الذي استقر عليه القرآن، مع بقية أدوات منهجه الداخلي التوحيدي، مع الاستئناس بترتيب النزول، لأن علوم القرآن وفقا لنظرة الحداثيين إنما تُغرق القرآن في التاريخ وتقيده عن أداء دوره في الحاضر وتثبط صلاحيته لكل زمان ومكان لحتمية الرجوع إلى علوم كانت خاصة بزمن مضى. هذا بشكل عام، كما يمكن لعلوم القرآن في سياقات أخرى أن تعطي نظرة جديدة معاصرة مثلما ذهبت

إليه الدكتور كفاح. ويبقى الحكم في ذلك إلى نظرة الدارس تحديداً وإلى متطلبات موضوعه الخاصة، مع وضع هذه القاعدة في الذهن دائماً: إنما هذه محاولات واجتهادات إنسانية طيبة تحاول تفعيل القرآن في الواقع، والإبقاء على قراءته قراءة سلوكية عاملة قائمة.

5. خاتمة

في نهاية هذه الدراسة رأينا كيف عدّ محمد أبو القاسم حاج حمد الترتيب الوقفي للقرآن من مظاهر إعجازه التي أبقت على صلاحيته لكل زمان ومكان، ورأينا في المقابل أن الترتيب الوقفي لا يمنع من استخدام ترتيب النزول في استخراج معاني جديدة موافقة للواقع المعاصر، وهذا ما حاولت الدكتورة كفاح إيصاله لنا من خلال مؤلفها "فقه بناء الإنسان في القرآن" فمحاولتها كانت محاولة جامعة بين توظيف علوم الأولين وقراءة الواقع.

أما عن النتائج التفصيلية فكانت كالآتي:

- الترتيب التوقيفي أو الوقفي كما يسميه حاج حمد هو الترتيب اذي استقر عليه القرآن الكريم خلاف ترتيب النزول الذي نزل وفقه منجماً.
- رؤية محمد أبو القاسم للترتيب الوقفي تنطلق من مماثلة القرآن بالكون، فكما الكون هو عبارة عن وحدة كلية، فالقرآن كذلك هو عبارة عن وحدة كلية عضوية، أما ترتيب النزول فهو متعلق بالنبوة التي سعت إلى تغيير وعي العربي لاستقبال الدين الجديد.
- أهمية الترتيب الوقفي عند محمد أبو القاسم، تكمن في إثبات أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ودحض للنظرة السكونية إلى آياته، وتوضيح أنه قابل بحكم منهجيته الإلهية للتعامل مع صيرورة المتغيرات الاجتماعية والتاريخية طبقاً لوحده البنائية العضوية، بما يتجاوز مرحلة التعيين التاريخي المقيدة إلى أسباب النزول وظرفية المكان، وهذا من مكنون مستقبلية، ثم إنه قابل للتفاعل مع كل مناهج المعرفة والحقول الثقافية البشرية المختلفة، لهذا فهو وجه من وجوه الإعجاز عنده.
- ترى كفاح أن قواعد التفسير وعلوم القرآن مهمة جداً لأي مفسر سواء من خلال الإمام بها أو من خلال توظيفها.
- استخدمت كفاح في كتابها فقه بناء الإنسان في القرآن ترتيب النزول والقرآن المكي، لكنها في الوقت نفسه حاولت وضع لمسات عصرية من خلال قراءة للواقع، لأن موضوعها كان خاصاً بدراسة إنسان الرسالة، فنجحت في إبراز البعد الواقعي المعاصر للقرآن الكريم من خلال استخدام الأدوات التراثيتين.
- يمكن الجمع بين استعمال الترتيب التوقيفي وترتيب النزول بدرجات وفق الحالة المراد دراستها، والقضايا المراد معالجتها.

كما يمكننا الخروج بتوصية مفادها أن دراسة علوم القرآن قد تختلف بين دراسة التراثيين والمعاصرين لها؛ فلكل منهجه الخاص ونسبة أخذه من قواعد التفسير والتي قد يعدّها بعضهم ملزمة والبعض الآخر غير ملزمة، وهذا ما يستدعي بحثاً موضوعياً بعيداً عن الذاتية في نوعية نتاج ومخرجات تلك الدراسات القرآنية.

6. قائمة المراجع

- البنا، جمال، (د.س.ن)، تثوير القرآن، القاهرة، دار الفكر الإسلامي.
- الجيوسي، عبد الله محمد، الجهود المبذولة في دراسة الإعجاز قديماً وحديثاً (دراسة إحصائية ونظرة تقويمية)، موقع الحوار اليوم (27/08/2024) <https://www.alhiwartoday.net/node/9233>
- حاج حمد، محمد أبو القاسم، (1996)، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
- حاج حمد، محمد أبو القاسم، (2003)، منهجية القرآن المعرفية، بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.
- حاج حمد، محمد أبو القاسم، (2004)، المداخل المنهجية والمعرفية للنص القرآني والتجديد مع دراسة تطبيقية حول المرأة المسلمة ودونيات مفهوم الخلق الأسطوري الإسرائيلي والعرب الاجتماعي العربي، مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، واشنطن، 1-82.
- حاج حمد، محمد أبو القاسم، (د.س.ن)، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، بيروت، دار الساقى.
- دواق، الحاج أوحمنه، (2015)، الإيستمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي قراءة في مشروع محمد "أبو القاسم" حاج حمد، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم (د.س.ن)، مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الزركشي، بدر الدين. (1957)، البرهان في علوم القرآن، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
- السيوطي، جلال الدين، (1974)، الإتقان في علوم القرآن، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الصالح، صبحي، (2000)، مباحث في علوم القرآن، بيروت، دار العلم للملايين.
- عبد الرحمن، عائشة، (1970)، القرآن والتفسير العصري (هذا بلاغ للناس)، مصر، دار المعارف.
- عبد السميع، عماد علي، (2006)، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، الإسكندرية، دار الإيمان.
- عبد العزيز، زينب، (2021)، الآليات المنهجية للقرآن الحدائثية لنص الديني محمد "أبو القاسم" حاج حمد نموذجاً، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، العراق، المجلد 11، العدد 3، 1-13.
- العك، خالد عبد الرحمن، (1986)، أصول التفسير وقواعده، بيروت، دار النفائس.
- مشكاة (17/08/2024) <https://mishkahorg.com/ar/node/271>

- أبو هنود، كفاح، (2012)، التوظيف الحدائي لآيات المرأة وإشكالياته "جمال البنا" نموذجاً. عمان، دار الفاروق للنشر والتوزيع.
- أبو هنود، كفاح، (2020)، فقه بناء الإنسان في القرآن، القاهرة، عصير الكتب للنشر والتوزيع.

7. Bibliography List

- Abdelaziz Zineb (2021), Methodological tools for the modernist reading of the Religious Text: Mohammed Abu Al-Qasim Hadj Hamed as a model, journal of the college of education for humanities, Thi-Qar University, Iraq, Volume 11, Number 3, 1-13.
- Abdu Al-Rahman Aisha (1970), The Qur'an and Contemporary Interpretation (This is a Message for People), Egypt: Dar Al-Ma'arif.
- Abdu Al-Samie Imad Ali (2006), Simplification in the Principles and Trends of Interpretation, Alexandria: Dar Al-Iman.
- Abuhannoud Kefah (2012), The Modernist Approach to Women's Quranic Verses and Its Problematics: "Gamal Al-Banna" as a Model, Amman: Dar Al-Farouq for Publishing and Distribution.
- Abuhannoud Kefah (2020), The Jurisprudence of Human Construction in the Qur'an, Cairo: Aseer Al-Kutub for Publishing and Distribution.
- Al-Akk Khalid Abdul Rahman (1986), Principles and Rules of Interpretation, Beirut: Dar Al-Nafaes.
- Al-Banna Gamal, (n.d.), Revolutionizing the Qur'an, Cairo, Dar Al-Fikr Al-Islami.
- Al-Juyousi Abdullah Muhammad (2015), Efforts Exerted in the Study of Quranic Inimitability in Ancient and Modern Times (Statistical Study and Evaluative Perspective). Al-Hiwar Today website: [https://www.alhiwartoday.net/node/9233\(2024/08/27\)](https://www.alhiwartoday.net/node/9233(2024/08/27))
- Al-Salih Subhi (2000), Investigations in Quranic Sciences, Beirut: Dar Al-Ilm lil-Malayin.
- Al-Suyuti Jalal Al-Din (1974), Mastery in Quranic Sciences, Egypt: The Egyptian General Book Authority.
- Al-Zarkashi Badr Al-Din (1957), The Proof in Quranic Sciences, Cairo: Dar Ihya' Al-Kutub Al-Arabiya.
- Al-Zarqani Muhammad Abdul Azim (n.d.), Sources of Knowledge in Quranic Sciences, Cairo: Isa Al-Babi Al-Halabi and Partners Press.
- Dawaq Al-Haj Ouhamna (2015), Cosmic Epistemology and the Monotheistic Knowledge Method: A Reading in the Project of Muhammad "Abul Qasim" Haj Hamad, Virginia: International Institute of Islamic Thought.
- Hajj Hamad Muhammad Abu al-Qasim (1996), The Second Islamic Universalism: The Dialectic of the Unseen, Humanity, and Nature, Beirut: Dar Ibn Hazm for Printing, Publishing, and Distribution.
- Hajj Hamad Muhammad Abu al-Qasim (2003), The Epistemological Methodology of the Qur'an, Beirut: Dar Al-Hadi for Printing, Publishing, and Distribution.
- Hajj Hamad Muhammad Abu al-Qasim (2004), Methodological and Epistemological Approaches to the Quranic Text and Renewal with an Applied Study on Muslim Women and the Inferiorities of the Israeli Mythical Creation Concept and the Arab Social Structure, Center for the Study of Islam and Democracy, Washington, 1-82.
- Hajj Hamad Muhammad Abu al-Qasim (n.d.), The Qur'an and Social and Historical Variables, Beirut: Dar Al-Saqi.
- Mishkat (n.d.), <https://mishkahorg.com/ar/node/271> (17/08/2024)